آخر كلام

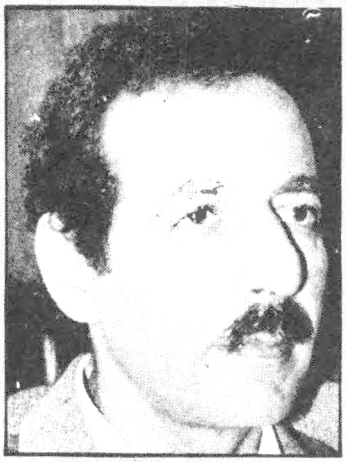

د. سليمان العطار

كتاكيت عبدالسلام !!

عبد السّلام النّجار نموذج فولكلوري من قرية جدى! قصة حياته كلها معاناة بهيجة مرحة . ورث عن أبيه مهنة النجارة وفدّانا من الأرض . أما المهنة فقد فشل فيها فتركها لأخيه الأصغر . وكان تبريره غريبا لتركها . إنه يعشق الخشب ويعزّ عليه أن يفلقه بالمسمار أو يشقه بالمنشار أو حتى يحرقه كوقود . وتوكّل على الله وقرر أن يعمل فلاحا يزرع فدّانه وفدّان أخيه . كان «يفتح» الماء في الأرض ويتوجه إلى القرية للمشاركة في أسمارها فيعود وقد أغرق أرضه من زراعة فدانه وقال له : عنش من فدانك أنت وابعد عني شرّك !

باع فدّانه الجيد التربة بمبلغ كبير وقرر أن يعمل مشروعا . وكان المشروع هو الزواج من «ابنة لعوب وجميلة» لغفير ريٍ جديد تم تعيينه في القرية ولم يكن من أهلها . عقد الزواج وجاءت ليلة الزفاف . حمل الأب العروس في نقاب إلى غرفة نوم عبد السلام . عندما رفع النقاب وجد فتاة شوهاء حدباء عمياء . أسرع إلى غفر الري يطلب البضاعة التي عقد عليها «الفتاة اللعوب» . فقال له الرجل : إن العقد قد تم على ابْنته الكبرى التي هي في حوزته . كانت ابنة سرّية للغفير لم يرها أحد ، ولكن اسمها هو الذي سجل في قسيمة الزّواج . صرخ عبد السلام ونادى القرية كلها الذي قبلها على عيبها . بَلَغ عبد السلام الفخ وهو يكاد يموت على روحه من الضحك بسبب بلاهته ، فقد طلب فعلا من الرجل يد (ابنته) أمام الناس دون أن يحدد اسمها ، بل إنه لم يكن يعرف اسم الاخرى اللعوب الجميلة . بتدخّل القرية تم الطلاق مع اعفائه من دفع مؤخر المهر . وطار نصف ثمن الفدان !

اتفق عبد السلام مع أحد البقالين في القرية على مشاركته بمبلغ فوق ثمن نصف الفدان ، لعمل معمل تفريخ فراريج (كتاكيت) . تم انشاء المعمل البلدي . وبعد مدة خرجت دفعة كبيرة من الكتاكيت الفصيحة التي فقست من البيض (صيِّيحة) . عبأها في أقفاص من الجريد اشتراها بحرّ ماله مع ثلاثة حمير وحمّل الحمير الأقفاص وصحب شريكه لبيعها بالتجول بين القرى .

سارا في طريق طويل كلما تفرّع اختار عبد السلام أحد الفروع بالاستخارة التي هدته أخيرا إلى قرية بعيدة ودخلاها وقد أخذ منهما ومن الحمير الانهاك ، فجلسا تحت ظل حائط وأخرجا غداءهما ليأكلا لقمة ثم يبدآن السعي نحو الرزق وأمالهما كبيرة ! فوجئا بمجموعة من الأطفال تخطف الطعام من أمامهما وتختفي حمد الله ـ مندهشين ـ على الجوع وقررا بدء الجولة على أن يطلبا من أول بيت أكلاً (كعادة أي تاجر غريب في قرية) . طرقا باب أول بيت خرجت سيدة . سألها (هل تُحبّين أن اشتراء كتاكيت لا نضير لها) أجابت بنعم وأمهلتهما لحظات ثم عادت ومعها أخريات يحملن أحذية وعصى وضربباناهما علقة ساخنة واغلقن الباب صفقاً في وجهيهما . تكرر الأمر في عشر بيوت مع تعدد أسلحة الضرب . بدأ الشك يتسلل إلى عقليهما . إنّها مؤامرة ولاشك ! قابلهما شاب في الطريق فسألاه عن «دوّار العمدة» . ألقى الشاب بالافقاص أرضا ومضى «يفعِص» بأقدامه الكتاكيت التي انطلق بعضها يهرب في حواري القرية . أنهى الشاب مهمته أمام ذعرهما . ثم أرشدهما إلى دوّار العمدة بعصا في يده تلهب ظهريهما . استقبلهما العمدة بصفع كل منهما صفعة على قفاه . لم ينتظر أن يشكوا إليه وما كانا فاعلين ! قال لهما : «إن قريتنا متخصصة في معامل التفريخ وهي توزع على المديرية كلها فكيف تسوّل لكما نفسيكما منافستنا ؟» أجاب عبد اسلام «لم نكن نعرف !» أجاب : «هذا جزاء من يبيع الميّه في حارة السقايين» . صادر الحمير وأطلق سراحهما ـ كما صرّح لهما ـ لحسن نيتهما . عادا إلى القرية : البقال يبكي وعبد السلام يضحك ويقول : «لقد صادر العمدة ثلاثة حمير ونسي ـ لأنه حمار ـ مصادرة الحمارين الباقيين !» . أغلق المعمل لقد عينوه لمجرد كيد طبّالا وأمره بالعودة إلى القرية فعاد يقول : «لكن بقيت رجليّ وسأعمل نحّاساً !» كانت نهاية عبد السلام سعيدة وشائقة بعد مشاريع كثيرة منحوسة . لقد طلبوا منه أن يقوم بدور «المحلِّل» لتزويج إمرأة ثرية لوجها للمرة الرابعة بعد الثلاث طلاق . وكان لا بد أن يختلي بها خلوة شرعية لمدة ليلة كاملة . تقزّزت المرأة من شكله وقذارته فأمرت بحمّام ساخن له مع حلاقة شعره والباسه ملابس نظيفة حتى لا يلوّث غرفة نومها برائحته وجراثيمه . أشرف حلاّق الصحة على العملية . خرج منها عبد السلام (بعد التعديل) «سيمة ومنظر وعليه قيمة» . أعجب المرأة فاحتفظت به لنفسها ولم تعد لزوجها (قط !) . مات الزوج من الحسرة . أمّا عبد السلام فكان يردّد ـ وهو يضع رجلا على رجل ـ ودون أن يتوقف عن الضحك ـ «لقد انفتحت لي طاقة القدر !) . صار من الوجهاء الأعيان وخلّف نصف دستة من الصبيان ، وما فتىء يقول متفكها : «لو عادت أمي من قبرها وشافتني لماتت من المفاجاة !) . لقد انتهى عبد السلام بأن صار براجماتيا نفعياً ولكن ظله الخفيف لم ينته قط ، فها هو يسرّي عنا بعد مماته بذكراه العطرة المدندشة !

■■

طبع في المؤسسة العربية للطباعة والنشر ـ البحرين